

العجائبية في قصص وفاء عبد الرزاق

د. غنام محمد خضر *

تكتنز معظم قصص وفاء عبد الرزاق بشخصيات عجائبية، ويتمخض عن هذا الاكتناز مواقف واتجاهات ورؤى تحاول من خلالها أن تسلط الضوء على جملة من الأشياء التي باتت تغزو حياتنا الإنسانية المعاصرة بطريقة عجائبية، □

وأخذت هذه الشخصيات اتجاهات وأشكال متنوعة أثارت المتلقي وشدته نحو العمل بشكل كبير. والشخصية العجائبية "شخصية مأزومة تحمل وعيا ورغبة في التغيير، إذ ترى العالم العجائبي من خلال منظورها الفردي، وتتميز هذه الرؤى بأنها رؤى حلمية تلجأ إليها الشخصية لتحقيق رغباتها المكبوتة أحيانا، وتسيطر الأحلام والكوابيس المشوشة في بعض الأحيان على هذه الشخصيات أيضا، كما تسود رؤى هذه الشخصيات التمويهات البصرية، والتخيلات المشوشة، والتحليق في عالم الحلم والاستبطان حيث اختلاط الحلم بالحقيقة" (١)، ومن الجدير بالذكر إنه في الأدب العجائبي يحصل انزياح عن الواقع لحساب اللاواقع المدهش، وتتغير ثوابت كثيرة من أهمها الأبعاد الثلاثة المعروفة للشخصية وهي (٢).

١. البعد الخارجي الذي يتعلق بالكيان المادي المتصل بتركيب جسم الشخصية أي المظهر العام.

٢. البعد الداخلي الذي يتعلق بالأحوال النفسية والفكرية للشخصية وما ينتج عنها من سلوك.

٣. البعد الاجتماعي الذي يتعلق بالظروف الاجتماعية والمركز الذي تشغله الشخصية في المجتمع. والشخصية العجائبية ما هي إلا مساحة مشتركة يجتمع فيها الواقع واللاواقع □ وان طغى الأخير عليها، وهي تقنية فنية استخدمتها الرواية الحديثة لتعبر عن أزمة الإنسان المعاصر، لذلك جاء البناء الفني لهذه الشخصية على وفق رؤية جديدة لا تحتفي بالأبعاد الداخلية والخارجية فحسب، إنما تعمل على تقويض الصورة الثابتة للشخصية والعمل على هدم مرجعياتها الواضحة ومن ثم إعادة تشكيلها بصورة غرائبية تتجاوز قوانين الواقع والطبيعة. ويتم في الروايات العجائبية" (٣) كما يتم في

* قسم اللغة العربية/ كلية التربية للعلوم الانسانية/ جامعة تكريت/ العراق.

الروايات العجائبية "وصف مخلوقات غير مرئية، أو تحويل الشخصيات المرئية إلى شخصيات غير مرئية، وتعمل هذه المخلوقات (...) على خرق العرف الطبيعي وخلق قوانين جديدة، وتنحو بعض الروايات العجائبية (...) إلى إحياء الكائنات غير الحية لخلق مشهد عجائبي يثير الدهشة، ويسري الوصف فيها على الإنسان والحيوان والنبات" (٤)

تتشكل شخصيات وفاء عبد الرزاق القصصية في مجموعتها (امرأة بزي جسد) بشكل عجائبي يثير الدهشة والغرابة لدى المتلقي، وتحاول من خلال رسم الشخصيات بهذه الطريقة العجائبية للكشف عن جملة قضايا خرقت النسيج الاجتماعي والتكوين الحقيقي للشخصية في الواقع. ففي قصة مقلوب سائق، ترسم لنا القاصّة شخصيتين بطريقتي ساخرة ومعكوسة للوضع الطبيعي المتعارف عليه، إذ جعلت من الشخصية الحقيقية سيارة أجرة (التاكسي)، كما جعلت من (التاكسي) شخصية واقعية لتحدثنا عن همومها ومشاكلها فهذا الانقلاب في تحديد الأدوار في رسم الشخصيات يعكس لنا حالة فنتازية عجائبية تثير دهشة المتلقي وتشده للتعرف على الشخصية بطريقة تأملية عميقة (كلهم يصعدون التاكسي يأخذون أي منعطف يشاؤون أي اتجاه أو شارع. إلا أنا يصعدني التاكسي يساومني على الأجرة يحدد لي وجهته وعنوانه بالضبط ألبى رغباته وأسوق. توقفت مرة لنقل مغرورة بنفسها وبلونها الأزرق الجميل، أوسعت جدرانتي وفتحت نوافذ صدري لتتنفس هواء الربيع المنعش) (٥). إذ ترسم لنا القاصّة هذه الشخصية بعد أن جردتها من تركيبها الحقيقية وأضفت عليها ملامح أخرى، فأصبح هذا الشخص حاملا للسيارة ويتجول بها في الشوارع حتى ملت قدماه من المشي، وهذا الوصف الفنتازي العجائبي للشخصية يشير إلى ما يتعرض له الإنسان من اضطهاد وقسوة وعدم اهتمام، ويأتي هذا الوصف محملا بالأبعاد والدلالات الرمزية التي من شأنها أن توجه القراءة وجهة معينة.

أما الشخصية الأخرى المتخيلة (التاكسي) فتركبت كذلك بشكل عجائبي غير مألوف وصاحب هذا الرسم للأبعاد الشخصية تحولا في دلالة الشخصية، إذ ارتبط العجائبي بالرمزي ليعكس للمقارئ الحالة المأساوية التي تعرضت له هذه الشخصية (التاكسي)، فما ترويه هذه الالة المؤنسة من سرد عجائبي هو تصوير للواقع المرير الذي خيم على حياة الناس، إذ من خلال هذا السرد تنقلنا القاصّة إلى داخل أسرة، وهذه الأسرة هي رمز للمجتمع، فالأسرة أخذت طابعا عاما لا خاصا (مررت يدها على المقعد الأمامي الأزرق الفاتح المصنوع من القطيفة، فتحت الصندوق الأمامي واستخرجت الملكية خذ اقرأ، أنا أعود لموظف في شركة النفط اسمه (عايف زهقان) متزوج ثلاث نساء لكل واحدة أربع بنات لم يرزقه الله بولد، عذبوني أو لاد الكلب، اثنتا عشرة

بنت وكل أسبوع لأربع دور: أربع بنات يلعبن على قماش في المقعد الخلفي. انظر لونه يختلف عن الأمامي... (٦). تكشف لنا الشخصية العجائبية (التاكسي) عن معاناة داخلية تتلقاها يوميا من عائلة صاحب الملكية، وهذه المعاناة تشير إلى الفوضى العارمة التي تعترى هذه الأسرة، وتغزو الواقع بكل تفاصيله، وما حصل من أنسنة الآلة ما هو إلا دليل على أن كل ما يتعلق بالمشاعر والكرامة والأحاسيس أصبح منتهكا في زمننا هذا لاسيما وأن إضفاء صفات الإنسان على الآلة وتصويرها بهذه الطريقة القاسية المتمثلة في معاناتها في بيت مالكة من الرموز التي تعمق البعد الدلالي لأحداث القصة، وهذه الأنسنة تعد تحولا عن الواقع الطبيعي الأمر الذي يجعل من الشخصية/ التاكسي شخصية عجائبية بعد أن أصابها التحول والتغيير والمسح، ثم تستمر القاصة في سرد معاناة هذه الشخصية التي تصور لنا عالم الماديات بعد أن تضي عليه صفات الإنسان العقلية والقلبية المتعلقة بطريقة التفكير والحب والكرهية وغيرها من الصفات، لتكشف لنا ما الذي يصبح للآلة بعد أن تتحول إلى إنسان: (هنا تجلس الزوجات باختلافهن اللوني والطولي ومعزتهن لدى الأستاذ عايف، لكن زوجته الصغرى لعنها الله تأخذني في يوم عطلة زوجها وتفرغه لمتعتها الخاصة إلى بيت عشيقها الباكستاني ولضرورات الصمت أكذب على عايف وأخفي السر، لكن زوجته الوسطى تدقق معي بطريقة مملّة مع هذا أتحمّلها لأنها تأخذني إلى أهلها تقضي النهار كله) (٧). الشخصية العجائبية/ التاكسي تسرد لنا تفاصيل عن أسرة مالكة عايف وهذا السرد يعكس الغش والخداع والخيانة التي استشرت في بيت عايف، ثم نلاحظ من خلال هذا المقطع أن الشخصية العجائبية / التاكسي أخذت تمارس فعل الخادم أو الشغال في بعض العوائل وما يحمله من أسرار خطيرة عن كل فرد في البيت، ويأتي هذا لإبراز حالة الفوضى المستشرية في تلك العوائل إذ كل شخص من هذه العائلة يعطي سره للخادم أو السائق، وبالتأكيد هذه التصرفات تثير الغرابة، والدلالة الأهم إن مجتمع الإنسان أقسى من مجتمع الآلة في عالم هذه القصة المتخيل مما يخلق مفارقة عجائبية ذات أبعاد رمزية ودلالات إنسانية، ومما يزيد من الفعل العجائبي الخاص بأبعاد الشخصية هو الحوار الذي ينشأ بين الشخصية الواقعية التي تتحول إلى سيارة، والشخصية العجائبية الثانية/ التاكسي، وهذا الحوار يضعنا أما أفعال عجائبية تقوم بها الشخصيات

(١. من اين البنية؟)

٢. ياغبي من عائلة شوفرليه الأصلية

٣. عذرك ما قصدت الأصل واسم العشيرة بل لمن ترجع ملكيتك يا رقيقة العود وعذبة الكلام؟

مررت يدها على المقعد الأمامي الأزرق الفاتح المصنوع من القטיפيّة، فتحت الصندوق الأمامي واستخرجت الملكيّة) (٨). نتعرف من خلال هذا الحوار على التحول العجائبي الذي طرأ على الشخصيات وغير في الأبعاد الخارجية للشخصية، وهذا التحول في فعل الشخصية يكرس الفعل العجائبي داخل القصة ويجعل الانزياح عن الواقع ضمن شبكة من القصدات التي ذهبت إليها القاصّة في مرويّاتها، كما تضعنا القاصّة أمام دهشة و غرابة وفعل عجائبي تتمكّن من خلاله إلى لفت انتباه القارئ وجعله واعياً ومتأملاً بشكل جيد للأحداث التي ستنتج عن طريق العجائبية، ويأتي هذا أيضاً عن طريق الحوار الذي تتكشف من خلاله أحداث ومواقف ترتبط بعالم العجائبية وترمز للعالم الواقعي المعاش.

وفي قصة (طفل بصحن هريس) التي تجسد معاناة بطلة القصة التي تكون في دعوة على العشاء لعوائل من الذوات، فبعد أن جاء الطعام بدأت البطلة بتجسيد شخصيات عجائبية عن طريق المخيلة (دارت الشوكات والملاعق وكؤوس العصير وتسابقت الأيدي بما لذ وطاب. إلا أنا تجمدت بمكاني حين شاهدت هيكلًا عظيمًا لامرأة من أفريقيا حبا على طول المائدة خائر القوى يدور حول الأواني ولا يقوى على مد عظام يده لتتسابق مع الجميع) (٩). إن استحضار هيكل عظمي بهذه الطريقة الغرائبية يشير ويرمز إلى الذاكرة العربية المعاصرة عند بعض الناس هذه الذاكرة التي امتلأت بالمشاكل، فأرادت القاصّة هنا أن تضعنا أمام مقارنة ما بين شعوب أنهكها الجوع والفقر وشعوب متخمة بالترف، وتكمن العجائبية هنا في طريقة الوصف الشخصاني الذي سيطر على الحدث القصصي.

وتستمر القاصّة في وصفها العجائبي إذ شاهدت الطفلة اللبنانية وهي محمصة (رأيت طفلة لبنانية مشوية محمصة محاطة باللوز والفسق، قلت في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله) (١٠). فانتقلت القاصّة بين البلدان العربية من خلال الوصف العجائبي للشخصيات، واختارت من كل بلد ما يتوافق مع ما يعانيه الإنسان، فالطفلة اللبنانية اشتعلت بنيران الحرب المستمرة في لبنان، وانفتح هذا الوصف على أكل الإنسان لأخيه الإنسان وفي هذا إشارة إلى الحروب الأهلية التي تشتعل في لبنان وفي غيرها من البلدان فأصبحت المواقع الجغرافية دالّة على التحولات الاجتماعية والحضارية والسياسية التي تعانيها البلدان العربية في صورة تبتعد تمامًا عن الواقع الطبيعي لصالح الصورة العجائبية التي تعبر عن واقع مؤلم ومربير.

الهوامش:

- (١) . العجائبية في الرواية العربية (من عام ١٩٧٠ الى نهاية عام ٢٠٠٠)، فاطمة بدر حسين، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، اشراف: د. شجاع العاني، ٢٠٠٣: ٣٥
- (٢) . . ينظر: حركة الشخص في شرق المتوسط، إبراهيم جنداري، الموقف الثقافى، بغداد، ٢٧٤، لسنة ٢٠٠٠: ٨٥.
- (٣) العجائبي في رواية الطريق إلى عدن، د. فيصل غازي النعيمي، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، مج ١٤، ٢٤، لسنة ٢٠٠٧، ١٢٢
- (٤) العجائبية في الرواية العربية (من عام ١٩٧٠ الى نهاية عام ٢٠٠٠): ١٣
- (٥) امرأة بزي جسد: ١٧
- (٦) م ن: ١٨
- (٧) . امرأة بزي جسد: ١٨
- (٨) . م ن: ١٨
- (٩) امرأة بزي جسد: ٣٥
- (١٠) م ن: ٣٦

□

..... ❖ ❖ ❖ ❖ ❖